لغة الحوار وقضية الازدواج اللغوي

بقلم يوسف الشاروني

ليس هناك خلاف على قضية أدبية مثل الخلاف على قضية الحوار ، وهي في الواقع ليست الا فرعا من مشكلة أعم هي مشكلة تعدد لهجات اللغة الواحدة . وكان العرب الاقدمون قد تنبهوا اليها ، كالخليل بن احمد الذي حاول في القرن الثاني الهجري ان يصل الى حل وسط حين حدد حدود البلاغة بقوله : ركن البلاغة اللفظ ، وهو ثلاثة انواع: نوع لا تفهمه العامة ولا تتكلم به ، ونوع تفهمه العامة وتتكلم به ، ونوع تفهمه العامة ولا تتكلم به ، وهو احمدها .

المشكلة اذن ليست جديده ، بل وجدت بذرتها منذ وجدت الكتابة . فالاصل في اللغة انها وسيلة التخاطب والتفاهم الشفاهي بين الناس . وهي — حتى في هذه المرحلة — تكون متعدده اللهجات ، على نحو ما نرى اليوم من تعدد لهجات الناطقين بالعربية ، وعلى نحو ما كان الوضع في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام . وباختراع الكتابة يتاح لاحدى هذه اللهجات ان تصبح لغة للكتابة ، وذلك لعوامل مختلفة اهمها ان يكون الناطقون بهذه اللهجة اكثر حضارة او اكثر سيطرة او اكثر عددا من الناطقين باللهجات الاخرى لتلك اللغة — لهذا فليست لهجاتنا العامية الحاضرة وليدة فساد طرأ على اللغة الفصحى كما قد يتبادر الى الذهن، بل هي تطور للهجات عربية اخرى كانت موجودة جنبا الى جنب مع اللهجة التي قدر لها ان تصبح الفصحى فيما بعد (١) . فعلاقة الفصحى بالعامية علاقة أخوة اكثر مما هي علاقة امومة .

يقول الدكتور ابراهيم انيس :

« ربما كان السر في تباين هذه اللهجات الحديثة انها ولا انحدرت من لهجات عربية قديمة متباينة . فلم تكن القبائل التي نزحت الى هذه البيئات ذات لهجة واحدة ، بل لقد وفدت اليها في عهود الغزو الاسلامي وبعده ، ومعها لهجاتها المختلفة . واقامت بها وكل منها يحتفظ بخصائصه ومميزاته في لهجات التخاطب التي تأثر بها اهل البلاد المفتوحة ، وبدأوا يحذون حذوها في لهجات كلامهم وتخاطبهم . هذا رغم أن تلك القبائل قد احتفظت جميعها باللغة النموذجية لغة الاداب و لدين التي نزل بها القرآن الكريم » (٢)

ولما كان من طبيعة الكتابة ان تجمد اللغة فتجعلها اقل تغيرا واكثر ثباتا ، فان المسافة التي ما تنفك تتسع بينها وبين لغة الحديث ، تخلق ما يعرف بازدواجية اللغة. يقول المازني :

« اللغة لغتان ، واحدة تستقر وتثبت على صورة فلا يلحقها التغيير الا في النادر والا فيما يمس الاصول ، وهذه هي التي تكتب ولها اداب ، واخرى هي اللهجات ، أي لغات الكلام ، وهذه دائمة التغير ، ولا ثبات لها على حال ، لانها لم ترزق ما يفيدها الضبط ويصدها عن التبدل والتحول المستمرين. واللهجات اسبق من اللغات الثانية او لغات الكتابة والادب»(٣)

وملاحظتنا على رأي المازني ان الازدواج اللغوي ليس معناه وجود لغتين فقط احداهما للكتابة واخرى للحديث، بل معناه وجود لغة للكتابة الى جانب عدة لهجات للحديث.

كذلك لا تحتكر لغات الكتابة المحاولات الادبية للشعوب التي تستخدمها ، فان لغات الحديث لها ايضا اشعارها وقصصها فيما يعرف بالاب الشعبي ، ويحل الحفظ والالقاء مكان التدوين والقراءة للابقاء على هذا الادب الشعبي.

وليس ادل على معنى الازدواج اللغوي كما شرحناه، من ان المازني يمضي فيقول :

« وليست لغة الكتابة والادب الا احدى اللهجات ، وما كانت لغتنا العربية الا واحدة من لهجات العرب في الجاهلية وقد كتب لها السيادة وقسم لها الاستعلاء ، قبل الاسلام بقليل ، ثم ثبت لها ذلك بنزول القرآن الكريم بها ، فاندمجت فيها اللهجات الاخرى ، ولولا القران ما عجزت اللهجات الاخرى عن الحياة ، ولكان من الممكن — اذا ساعفت احداها الاحوال — ان تفيد قوة تسترد بها مكانتها » (٤) .

وعندما كانت الكتابة على نطاق اضيق ، والامية على نطاق اوسع ، كانت الغلبة دائما للغة الحديث ، فما تلبث لغة الكتابة أن تتخلى عن شكلها القديم ، لتصبح لغة الحديث بدورها لغة للكتابة ، وذلك على نحو ما حدث في فرنسا وايطاليا ورومانيا واسبانيا والبرتغال ايام كانت لغة الكتابة فيها هي اللاتينية .

في تلك الحالات كانت لغة الكتابة هي لغة السادة، وكانت العامية هي لغة الشعوب بما في ذلك شعب روما نفسها التي كانت لها السيادة على تلك الشعوب ، وكان هذا امرا منطقيا حيث لا يتاح التعليم — وما يتضمنه التعليم من قراءة وما يستتبعه من تأليف — الا للسادة القادرين. لهذا فان تحول لغات هذه الشعوب من لغات للحديث الى لغات مكتوبة صاحب نمو الحركة القومية فيها .

اما اليوم فبسبب انتشار التعليم واتساع نطاق الكلمة المكتوبة ، لا سيما عن طريق الصحف والكتب،ولسهولة المواصلات واختلاط البيئات التي تتكلم لغة واحدة بحيث لا مجال لعزلتها عن بعضها البعض ، فان لغات الكتابة اصبحت اكثر مقاومة وأقدر على البقاء . فالفرد العادي يستخدمها اليوم في حياته بقدر ما يستخدم لغة الحديث تقريبا.

وهكذا لم تعد هناك لغة يستأثر بها السادة ولغة يستأثر بها الشعب ، وساعد على ذلك اتجاه الشعوب نحو الاخذ بالنظم الاشتراكية مما يذيب الفوارق بين الطبقات وما يترتب على ذلك من تحطيم للحواجز بين اللهجات التي تستأثر بها كل طبقة .

وقد ادى الازدواج اللغوي الى اختلاف الوسيلة التي يتم بها تلقين وتلقي كل من اللغتين ، فاللغة العامية يتلقاها الطفل شفاها من الاشخاص الذين يعيشون في بيئته ، اما الفصحى فلا بد — في اية لغة في العالم — من تعلمها وبذل الجهد في دراستها .

لهذا اذا احتاجت لغة ما الى تعلم — كما حدث بالنسبة للغة العربية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

ـ فمعنى ذلك انها لم تعد لغة الحديث بل اصبحت لغة فصحى وان هناك لغة عامية تقابلها .

والحالة الانفعالية للمتحدث تختلف بالضرورة عن الحالة الانفعالية بالنسبة لمن يكتب ، فالمتحدث يكون اكثر انفعالا وتغيرا بعكس من ينصرف الى الكتابة ، فانه يكون اكثر هدوءا واستقرارا . فلغة الحياة اليومية تطفو على سطح الوجدان ، انها دائما لغة فجائية انفعالية ، لا يتيسر لها وقت ولا فراغ لاعمال الروية ، فهي لغة الاشارات البسيطة اما لغة الكتابة فهي لغة العقل ، لغة الروابط والعلامات النحوية ، لان لدى كاتبها من الوقت ما ينفعه في الامعان والاعداد .

ولغة الحديث لا تعتمد على الكلمات فقط ، بل ان التنغيم او تغيير الصوت او سرعة الحديث او الشدة التي يركزها المتكلم على هذه الكلمة او تلك او الاشارة التي تصحب الكلام تشترك مع الكلمات في عملية التعبير . لهذا فقد يستفهم المتحدث مثلا بغير استخدام اداة استفهام، بينما لا تعتمد لغة الكتابة الا على الكلمات ونظامها النحوي المتفق عليه ، وهدفه ان يعوض بعضا مما فقدته اللغة من حيوية الحديث .

يقول ج. فندريس في كتابه « اللغة » :

بقدر ما تستخدم اللغة المكتوبة نظام التبعية تمارس لغة الكلام نظام الالصاق . فالمتكلم لا يستعمل الروابط النحوية التي تحصر الفكرة وتطبع الجملة بطابع القضية المنطقية الضيق ، ولغة الكلام مرنة خفيفة الحركة تدل على صلة الجمل بعضها ببعض باشارات بسيطة مختصرة (٤) ... فتارة ترانا نقذف قبل الجملة بكلمة او بقسم من جملة ، معاستئنافه بعد ذلك بواسطة عنصر صرفي ، اداة كان او ضميرا ، وتارة ندفع به الى نهاية الجملة منعزلا عن السياق مع الاعلان عنه مقدما في بقية الجملة، واخيرا قد يكون ذلك بفصم ارتباط الجملة بغتة وجعل نصفها التالي يسير على خطة جديدة لا صلة بينها وبين النصف الاول » (٥)

كذلك من وسائل اللغة الانفعالية التكرار (٦) وتزويد جملها بعدد كبير من الكلمات التي تبدو وكأنها حشو بين الكلمات المعبرة ، ولعل وظيفتها الرئيسية اعطاء الفرصة للمتحدث لاعداد الجملة التالية قبل ان ينطقها او للاطمئنان الى انتباه السامع او فهمه كأن يقول : « مفهوم » او « وبعدين » او « مش كده » ؟

هذه الطرق المختلفة الشائعة في لغة الكلام كثيرا ما استعارتها لغة الكتابة كلما اقتضى الامر احداث تأثير (٧) ويميل بعض علماء اللغة الذين هم علماءنفس في الوقت ذاته الى الاعتقاد بان اللغة الانفعالية تسبق اللغة العقلية دائما عند الطفل (٨)

وبينما تلبي لغة الحديث ما يطرأ على الحياة اليومية من جديد ، تلبي لغة الكتابة حاجة الانسان الى كلمات جديدة يواجه بها اتساع نطاق تأملاته وفلسفاته .

يقول محمود تيمور

« لغة الكلام تمد لغة الكتابة بالفاظ حية تسري في اساليبها دما جديدا ، ولغة الكتابة تدفع الى لغة الكلام عبارات شريفة وكلمات منتقاة لا غناء عن استعمالها في محيط الحياة » (٩)

وهذه التفرقة بين مجال استخدام كل من اللغتين ربما فسرت لنا لماذا كان حوار الملهاة اسبق تنازلا عن الفصحى واسرع الى العامية من حوار المأساة ، كما كان من قبل اسبق تنازلا عن الشعر واسرع الى النثر وذلك لان الملهاة اقرب الى الحياة والواقعية .

لهذا يرى البعض ان هذه الازدواجية ظاهرة طبيعية في كل لغات العالم ويعبر عن هؤلاء كمال يوسف الحاج استاذ الفلسفة بالجامعة اللبنانية حين يقول :

« في كل لغة بشرية لسان عامي ، ولسان فصيح . ازدواجية اللغة هي ذاتها امتداد لازدواجية الفكر وهي العقل والحس ، فالعامية تعبر عن لغة الحس المفككة المفاصل والفصحى تعبر عن لغة العقل المرتبطة المفاصل » (١٠)

والشعوب البدائية هي وحدها التي لا تعاني من ازدواج اللغه لان المسافة بين الحس والعقل تضيق لديها. فالشعوب الخالية من ادب عاليه ، ومن نظريات الهية ، هي وحدها لغة لا ازدواجية فيها . اما الامم المتحضرة فهي لا تكتب كما تحكي ولا تحكي كما تكتب (١١) .

كما يؤيد الاستاذ العقاد هذا الرأي فيقول :

« ونحسب ان الزمن كله سينقضي دون ان يجتمع الناس على لهجة واحدة في اللغة الواحدة . يكتب بها العالم والفيلسوف والاديب، ويتكلم بها البائع والشاري والمتحدث والسامر في البيوت والاسواق . وشأن اللغة في هذا كشأن كل حالة تعرض للبيئة الاجتماعية . فهناك تفرقة دائمة بين الحالات التي يحتفل فيها المرء بكسائه ومسكنه وطعامه، وبين الحالات التي يترسل فيها على غير كلفة .. لا بد من لغة للعلم والادب، ولغة للسوق والمعيشة اليومية في كل لسان » (١٢) .

ولكن اخرين يحتسون ان تؤدي ازدواجية اللغة الى ازدواجيه نفسيه ، كما عبر عن ذلك الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، عندما اعلن في اسبوع ادباء العرب عام ١٩٥٤ أن هذه الازدواجية

« قد تؤدي الى ازدواجية نفسية في النشء أولا ثم سائر الجمهور. ازدواجية بين حياتنا الواقعية الصميمة والحياة الخيالية المستمدة من احلام القراءات ومغامرات الافلام السينمائية ، مما يؤدي الى ازدواج شخصيتنا الاجتماعية » (١٣)

كما يعبر الاستاذ امين الخولي عن هذا الرأي حين يقول ان هذه الازدواجية تجعل الامة العربية

« نحيا وتشعر وتتعامل وتتواصل بلغة يومية مرنة نامية متطورة مطاوعة .. ثم هي تتعلم وتتدين وتحكم بلغة مكتوبة محدودة غير نامية.. لا تطوع بها الالسنة .. وتتعثر فيها الاقلام . وهذا الازدواج اللغوي القهري يصدع وحدتها الاجتماعية .. ويفرقها طبقات ثقافية وعقلية »(١٤)

لهذا يرى البعض حل الاشكال عن طريق الوصول الى لغة واحدة . وقد عبر عن هذا الرأي الاستاذ احمد لطفي السيد حين قال :

« نريد ان نرفع العامية الى الاستعمال الكتابي ، وننزل بالضروري من اللغة المكتوبة الى ميدان التخاطب والتعامل ، فلا تكون النتيجة الا اننا نكتب الكتاب مفهوما ، ونتحدث الاحاديث عربية صميمة » (١٥)

كما يطالب سلامه موسى بمثل هذه اللغة فيقول :

« اللغة الحية تتفاعل مع المجتمع فتنحط بانحطاطه وترتقى بارتقائه، أي انها تتطور . وهي حين تتطور ينشأ بينها وبين المجتمع اتصال فسيولوجي ووظائف عضوية كما بين اليد والذهن كلاهما يخدم الاخر وينتفع به . ولهذا السبب يجب ان يكون للمجتمع لغتان احداهما كلامية أي عامية والاخرى مكتوبة اي فصحى ، كما هي حالنا الان في مصر وسائر الاقطار العربية ، لان نتيجة هذه الحال ان اللغة المكتوبة تنفصل عن المجتمع فتصبح كأنها لغة الكهان التي لا تتلى الا في المعابد ، وينقطع الاتصال الفسيولوجي بينها وبين المجتمع فلا تتطور . ولهذا يجب ان تكون

طبعت على مطابع :

دار الغد

تلفون : ٢٢٢٩٢١

غايتنا توحيد لغتي الكلام والكتابة . فنأخذ من العاميةللكتابة اكثر ما نستطيع ونأخذ من الفصحى للكلام اكثر ما نستطيع حتى نصل الى توحيدهما . أن المسرح مثلا لم يرتق لاننا لم نستطع تأليف الحوار باللغة الفصحى من اشخاص الدرامه . لان الكلمة الفصحى ليست « جوية » أي انها لا تنقل اليها جو الحديث . لاننا الفنا ان يكون الحديث باللغة العامية ، فترجمته الى اللغة الفصحى يصدمنا ويشعرنا بان هذه الكلمة ليست في مكانها ، اي ليست في جوها الاجتماعي (١٦).

كما عبر عن الفكرة نفسها احمد بهاء الدين في مقدمته لمجموعة « مساء الخير يا جدعان » لبدر نشأت ، حين قال:

« لا يمكن ان نظل نكتب الفصة الواحدة بلغتين ، لغة للحوار، ولغة للسياق ، انما المؤكد المحتوم اننا سنسير نحو لغة واحدة موحدة. ليست هي اللغة الفصحى القديمة التي نرى عجزها عن ان ترضي ذوقنا ومشاعرنا . وليست هي لغة عامية بلا قواعد لانه لا توجد في اللغات كلها لغات ادبية بلا قواعد ، انما هي لغة مطعمة من الاثنتين » .

فلغة الكتابة ــ كلغة الحديث ــ لغة متطورة ايضا ، الا ان تطورها اكثر بطئا ، يقول الدكتور تمام حسان :

« فاللغة العربية المشتركة المعاصرة ليست لغة الشعر الجاهلي ، وليست لغة القرآن والحديث وانما هي لغة تشترك مع هاتين في نواح وتختلف عنهما في نواح اخرى مهمة . انها مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية تمتاز بخصائص معينة في حياتها . كلتا اللغتين لغة ادب ، وكلتاهما تجمع العرب على اداة تعبيرية واحدة ، ثم كلتاهما تحيا جنبا الى جنب مع لهجات محلية مختلفة ... ولكن الفصحى القديمة انتهت بسنة التطور ، والفصحى الحديثة تحيا بهذه السنة نفسها » (١٧) .

القاهرة — يوسف الشاروني

المصادر والتعليقات :

١ ــ استدل القاضي ويلمور على صحة هذا الرأي بوجود أوجه للشبه بين العامية العربية في مصر وبعض اللغات السامية القديمة كالعبرية والارامية اكثر مما هي موجودة بين العربية الفصحى وهذه اللغات ، وقال ان هذا يبرهن على ان عاميتنا تنحدر مباشرة من لهجة عربية قديمة اوثق اتصالا بهذه اللغات من العربية الفصحى نفسها .
أنظر :

J. Selden Willmore : The Spoken Arabic of Egypt, London, 3rd edition, 1919, Preface to the 2nd edition , p. VIII .

ومؤلف هذا الكتاب احد القضاة الانجليز الذين عملوا بالمحاكم المصرية ، وقد اثار ظهور الكتاب في اوائل هذا القرن مناقشات في الصحافة المصرية ، اطلعنا منها على مقال نشرته الاجبسيانجازيت بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٩٠١ اعقبه مقالان في المؤيد بتاريخي ٩ نوفمبر ، ٢١ ديسمبر من السنة نفسها . ثم خمس مقالات في مجلة الضياء ــ السنة الرابعة ــ (١٩٠١ ــ ١٩٠٢) صفحات ٢٥٧ ، ٣٢١ ، ٣٥٣ ، ٣٨٥، ٤١٧.

وقد يرد على هذه الحجة بأن هذه القرابة بين بعض اللهجات العامية واللغات السامية القديمة انما نشأت نتيجة احتكاك الناطقين بالعربية بالناطقين بهذه اللغات فيما بعد ، كما حدث بالنسبة للعربية الفصحى في العراق عند احتكاكها بالارامية حتى ان قسما كبيرا من مفرداتها وبعض قواعدها غير عربي الاصل.

(أنظر : فقه اللغة ــ لعلي عبد الواحد وافي ــ ط ٢ ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ سنة ١٩٤٤ ــ ص ١٢٦)

٢ ــ الدكتور ابراهيم انيس ــ في اللهجات العربية مطبعة لجنة البيان العربي ــ القاهرة ــ ٢٧ ــ سنة ١٩٦٢ ــ ص ٨

٣ ــ احاديث المازني ــ الدار القومية للطباعة والنشر ــ سنة ١٩٦١ ــ ص ٨٩

٤ ــ ج. مندريس : اللغة ــ تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ــ مكتبة الانجلو ــ القاهرة ــ سنة ١٩٥٠ ــ ص ١٩٣

٥ ــ المرجع السابق ــ ص ١٩٦

٦ ــ المرجع السابق ــ ص ١٩٩

٧ ــ المرجع السابق ــ ص ١٩٦

٨ ــ المرجع السابق ــ ص ١٩٥

٩ ــ محمود تيمور : في مقدمة كتابه فن القصص ــ ص ١٥

١٠ ــ مجلة الاديب ــ مايو سنة ١٩٥٩ ــ ص ٤

١١ ــ كمال يوسف الحاج ــ مجلة الاداب ــ مارس سنة ١٩٥٦ ــ ص ٧٧ . كما توسع في شرح هذه النقطة في كتابه : فلسفة اللغة ــ دار النشر للجامعيين ــ بيروت ــ سنة ١٩٥٦ ــ لا سيماالفصل الثالث.

١٢ ــ عباس محمود العقاد : حرب اللغة . مجلة الكتاب . القاهرة ــ مايو سنة ١٩٥٢ ص ٥٣٦ ــ ٥٣٧ .

١٣ ــ الاداب ــ اكتوبر سنة١٩٥٤ ــ ص ١٤

١٤ ــ امين الخولي : محاضرات عن مشكلاتنا اللغوية ــ معهد الدراسات العربية ــ القاهرة ــ سنة ١٩٥٨ ــص ٤

١٥ ــ احمد لطفي السيد : المنتخبات ــ جـ ٢ ــ ص ١٢٤

١٦ ــ سلامه موسى : البلاغة العصرية واللغة العربية ــ المطبعة المصرية ــ القاهرة ــ سنة ١٩٤٥ ــ ص ٤٧

١٧ ــ دكتور تمام حسان : اللغة المعمارية والوصفية ــ مكتبة الانجلو ــ القاهرة ــ سنة ١٩٥٨ ــ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

ظهر حديثا :

ديوان

دعبل بن علي الخزاعي

جمعه وحققه

الدكتور محمد يوسف نجم

الجامعة الأميركية ــ بيروت

نشر وتوزيع دار الثقافة

الثمن ٥ ليرات او ما يعادلها